النثر غير القصصي

تمهيد

سنعالج فى الفصول التالية التأليف الذى اتخذ النثر وسيلة للتعبير ، ولكنه خارج عن موضوعات القصص ، والمسرح . ومن السهل أن يسلم المرء بأن القصص والمسرح من صميم التأليف الأدبى ، ولكنا إذا خرجنا عنهما وجدنا أن ميدان الكتابة بالنثر لا يزال ميداناً فسيحاً هائلا ، وأنه ليس من المعقول أن يدخل هذا كله فى نطاق الأدب ، الذى يراد منه على الأقل أن يجمع بين جمال الفكرة وجمال الأسلوب . وكثير منه عرض زائل لا يلبث أن يغتاله النسيان ، وأكثره لم يحاول كاتبه أن يتجه به وجهة أدبية . بل لم يخطر له مثل هذا الخاطر .

يتبقى لدينا بعد ذلك قدر عظيم من النثر ، فى غير الميدان القصصى ، يشتمل على صفات — سواء فى معناه أو أسلوبه — تضمن له البقاء إلى الأجيال المقبلة . ولعل هذه الأجيال أن ترى فيه صوراً وشكولاأدبية لا نكاد نتبينها اليوم ، لأننا شديدو التأثر بالموضوعات التى تعالجها تلك المؤلفات .

لقد اشتمل النثر الأدبى فى أمريكا فى غضون القرن التاسع عشر على فرعين فى غير ميدان القصص اشتهر التأليف فيهما ، وهما « الرسائل » و « السير » . وكانت الكتابة فى كلا هذين الفرعين على الرغم من معالجتها لموضوعات ذات بال تقرأ ، لا لما اشتملت عليه من الآراء فقط ، بل ولما امتازت به من جمال الأسلوب أيضاً . ولا مفر من التسليم بأن كتاب القرن التاسع عشر كانوا يتعمدون أن تمتاز كتابتهم بالعبارة الأدبية الأنيقة ، وتبدلت الحال نوعاً ما فى القرن العشرين ، وأصبح كتاب الرسائل — إذا استثنينا القليل منهم — منصرفين كل الانصراف إلى عرض الدعوى ، والإدلاء بالحجج الدامغة ، وتفنيد مزاعم الخصوم ، وكثير منهم أصبح ينفر من كلمة « رسائل » ويؤثر أن يسميها « مقالات » ؛ لأن هذه التسمية لا تلزمه أن يتكلف الصيغ الأدبية فى كتابته . ومع هذا فقد اشتهر فى هذا القرن كتاب فى التاريخ والفلسفة والاقتصاد ، استطاعوا أن يكتسبوا تقديراً أوسع لفنهم وأسلوبهم الأدبى ، ولكن هذه المهارة الأدبية لا تعتبر الناحية الأساسية

فى تأليفهم . وهكذا لا يعد معظم مؤلفى النثر غير القصصى فى القرن العشرين فى أمريكا من « الأدباء » بالمعنى المألوف ، إذا قورنوا بكتاب القرن التاسع عشر .

وليس معنى هذا أن النثر غير القصصى يحتل من الأدب الأمريكى اليوم مكاناً أقل خطراً مما كان يحتله فى القرن الماضى ، ومؤلفات ساندبرج عن حياة لنكولن ، وفريمان عن روبرت لى ، وكتاب هنرى أدمس الخالد عن سيرته ، تكفى لدحض هذه الفكرة ، ولكن معناه أن العنصر الأدبى الصرف فى القرن الحاضر قد غلب عليه التفكير الفلسفى أو السياسى أو التاريخى أو الاجتماعى . وهذه المؤلفات السياسية والفلسفية والاجتماعية تحتل مكاناً رفيعاً فى الإنتاج العقلى فى هذا القرن . فهى لذلك جديرة أن تحتل مكاناً واضحاً فى كل مؤلف يصف الحياة الأدبية والإنتاج الأدبى بجميع أنواعه فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد قسمنا الموضوع إلى ثلاثة فصول : الأول عن التأليف الفلسفى ، والثانى عن التأليف الأدبى لرجال الصحافة والنشر ، والثالث عن التأليف الاجتماعى . وقد عالج كل مؤلف موضوعه بالطريقة التى رأى أنها المثلى .

١ — الفلسفة فى أمريكا

١٩٠٠ — ١٩٥٠

ماى برود بك

قال أحد الكتاب المحدثين : « إن التأليف الأدبى فى جملته يميل إلى معالجة الحقائق لا المظاهر ، أى إنه يعنى بحقائق الأشياء لا بمظهرها الخارجى ، ومع أن الفلسفة تختلف فى وسائلها وأهدافها عن الأدب ، فان فى هذه الجملة وصفاً لا بأس به لطبيعة الفلسفة أيضاً ، والفيلسوف لا يكفيه أن يظهر الفرق بين الحقائق والمظاهر كما يفعل الأديب ، بل يهمه أيضاً أن يوضح لنا كيف يهدينا التفكير للتمييز بين هذين الأمرين وكيف نستطيع أيضاً من غير تفكير وبحكم الغريزة أن نحترس من المظاهر الخداعة .

ويحدثنا الكاتب نفسه فى مكان آخر بأن فى الأمريكيين من يظن أن

هنالك تعارضاً بين حقائق الوجود وبين الفكر ، وأن من واجب المرء أن ينحاز إلى جانب الحقائق »[١]. وفى هاتين العبارتين استطاع أن يلخص لنا تضارب الآراء الذى كان يتنازع الكتاب والأدباء ؛ ولكن هذا النزاع لم يكن مقصوراً على الأدباء ؛ فان فلاسفة أمريكا قد ورثوا النظريات التقليدية عن الجيل السابق ؛ فنشأت فلسفة القرن العشرين كثورة على تلك الفلسفة التى كانت تنادى . بأن كل شىء مرده إلى أمر واحد : وهذا الواحد هو الفكر Mind .

١ ــ المثالية أو الفكرية

كانت الفلسفة فى أمريكا إلى أواخر القرن الماضى ، بمثابة الخادم لعلوم الدين . وكان الذى يتولى تدريس الفلسفة فى المدرسة قسيساً أهم ما يعنيه أن يبنى بدرسه هذا حصناً منيعاً ضد الإلحاد فى هذا العهد « الذى انتشر فيه الفساد » . وقد نشأ فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر جيل جديد من الفلاسفة درسوا فى القارة الأوربية ، ولم يكونوا من رجال الدين ، وتولوا مناصب تدريس الفلسفة فى المدارس والجامعات الأمريكية ، ومع ذلك كان جل همهم أن يثبتوا الصلة الوثيقة بين الإنسان وربه . يسوغوا للناس أحكام الإله وسنن الكون . فكانوا يشرحون للطلاب مذهب المثالية المطلقة Absolute Idealism ، وهو أحدث وأفخم مذهب فلسفى يحاول الدفاع المنظم عن فكرة الألوهية ، والأبدية ، والخلود . وكان لا بد من أن يبعث المذهب الايديالى فى صورة قوية جديدة عنيفة ، بعد الذى منيت به المسيحية من الهزيمة بسبب مقاومتها العنيفة لمذهب داروين أولا ، ثم استسلامها لدعاة هذا المذهب بعد ذلك . فكان هنالك حاجة لمذهب جديد يشرح الظاهرات الكونية والنفسية فى أسلوب لا يخالف القواعد الأساسية للدين ، وإن خالفها فى بعض التفاصيل . وهذا المذهب هو الفكرية أو المثالية المطلقة . وكلمة « المثالية » ــ ويقابلها كلمة الواقعية realism ــ لها فى كلام الناس معنى يخالف معناها فى الفلسفة . فهى فى الاصطلاح العام تدل على نوع من السلوك

(١) المؤلف هو Lionel Trilling فى كتابه The Liberal Imagination ، نشر سنه ١٩٥٠ ص ٢٠٩ و ١٠

ينشد صاحبه مثلا أعلى ويوجه أعماله وأقواله نحو هذا المثال ، ويتصل بذلك عبارة « المثل العليا » والتمسك بها ، وما شاكل ذلك من العبارات . أما فى الفلسفة فان مذهب المثالية له معنى آخر ليس له بالمعنى العام سوى صلة ضعيفة جداً . لذلك نرى الفلاسفة فى البلاد العربية يفضلون استخدام كلمة أخرى وهى «المذهب الفكرى » ويسمون أنصار هذا المذهب باسم « الفكريين » بدلا من كلمة المثاليين .

وترتكز الفلسفة الفكرية على قاعدة أساسية وهى : أن مادة العالم كله قوامها الفكر ، فكل شىء فى العالم لا وجود له إلا فى الفكر ، وكل شىء موجود لأنه قائم فى الفكر . وهكذا تكون العبرة فى وجود هذا العالم لا ترجع إلى أنه كائن موجود بطبعه ، بل الى أن الفكر البشرى يتصور أنه موجود . وقد عبر الشاعر الإيرلندى ييتس Yeats عن ذلك بقوله فى قصيدة « الدم والقمر » :

أما أستاذنا بركلى(١) ، ذو المواهب الربانية ، فقد أثبت أن كل شىء أضغاث أحلام . وأن كل هذا العالم الفخم الضخم ، برغم كل ما يبدو من ضخامته وفخامته سيختفى فى لحظة ، إذا ما تغير تفكير الإنسان أو تحول . . .

وقد حاول المذهب الجديد ، وهو « الفكرية المطلقة » أن يتجنب ناحية التطرف فى المذهب الفكرى الأول الذى كان ينادى بأن كل شىء موجود فقط لأنى أتصوره ، ولا وجود له إذا لم أتصوره بفكرى ؛ أما المذهب الجديد فيفترض وجود « العقل المطلق » أو « الفكر المطلق » ، وهى عبارة فلسفية ترمز للإله ؛ وهذا « العقل المطلق » أبدى أزلى ، والعالم الحقيقى هو ما يراه هذا العقل المطلق .

ويمتاز مذهب « الفكرية المطلقة » على الايديالية السابقة بأنه مذهب منظم قد شرحت فصوله وأجزاؤه شرحاً وافياً ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن أكثر دعاته كانوا فلاسفة محترفين مثل الأستاذ رويس Josiah Royce أستاذ الفلسفة فى هارفرد ، كما يرجع إلى تأثير الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel . كما لقى

(١) يسخر الشاعر من المذهب الايديالى الأول الذى كان من أكبر دعاته الأسقف Berksley الفيلسوف الانجليزى المشهور . وقد كانت الفلسفة الأمريكية الحديثة بمثابة ثورة على هذا المذهب .

المذهب تأييداً كبيراً من الثورة على العلم التى شنها طائفة من الكتاب الألمان وتبعهم فى ذلك كولردج Coleridge وإمرسن Emerson ؛ فقد رأى الكتاب أن من السخف ، الذى يبعث على التدهور الخلقى والأدبى ، أن يكون العلم — كما صوره العلماء — مجرد ذرات تتلاحم وتتلاطم فى الفضاء من غير معنى ولا مغزى .

والمذهب الجديد يصور لنا « العقل المطلق » أو الإله بأنه ليس خالقاً منفصلا عن العالم ، بل هو الروح الذى ينتظم الكون وهو مادته أيضاً . وحقائق الكون ووقائعه هى آراء وأفكار للعقل المطلق . وغايته التى يرمى إليها هى أن يتجلى أو يتحقق إلى الأبد ، فى نظام منطقى سليم ، أى طبقاً لخطة دقيقة مرسومة .

هذه هى الفكرة الأساسية لهذا المذهب الفلسفى الذى كان له النفوذ الأكبر فى الولايات المتحدة فى الربع الأخير من القرن الماضى ؛ ولكنه لم يسد إلا فترة قصيرة من الزمن ، برغم ما كان يبدو من مظاهر السمو والفخامة فى تعاليمه . فلقد كان فى الواقع عبارة عن فلسفة انتقالية ما بين الروحية الدينية الخالصة ، وبين المادية التى أخذت تطغى على العقل الأمريكى . كانت آراؤه وسطاً بين هؤلاء وهؤلاء ، ولذلك لم ترض هذا الفريق أو ذاك . فلم يلبث أن لقى معارضة شديدة فى الأوساط الدينية ، التى كانت ترى أن الله قد خلق العالم والكائنات فعلا ، لا أنها مجرد فكرة خطرت له . وفوق ذلك كان فى المذهب الايديالى (الفكرى) من آراء الحلوليين القدماء ما يكفى لتنفير أنصار الدين منه ، وكذلك كانت تعاليم هذا المذهب ، فيما يتعلق بالغض من قيمة العلم ومن النظريات العلمية ، مما يتنافى مع النهضة العلمية ، التى كانت على أشد قوتها فى ذلك الوقت . لذلك تعرض هذا المذهب لهجوم شديد ، من جهتين مختلفتين فى ميدان الفلسفة : الهجوم الأول من أنصار المذهب العملى أو البرجماتى Pragmatism ، والثانى من أصحاب المذهب الواقعى Realism . ولم يدرك أنصار هذين المذهبين ما بينهما من التناقض الهائل ، إلا بعد أن انهزم العدو المشترك ؛ ثم ثارت بينهما حرب باردة لا تزال رياحها القارصة تهب علينا إلى اليوم من آن لآن .

ومهما يكن من شيء فان الثورة على المذهب الإيديالى كان لا بد لها من أداة تحركها وتهيء الظروف لقيامها ؛ وكانت هذه الأداة هى وليم جيمس.

ب — وليم جيمس

ليس من السهل أن نحدد مكان وليم جيمس بين الفلاسفة أو بين علماء النفس ، وهنالك قول مأثور بأن طبيعة فلسفة أى إنسان تتوقف على طبيعة هذا الإنسان . ولعل خير مثل تبدو فيه صحة هذا القول بوضوح هو وليم جيمس . ولقد كان من أخص طباع جيمس ضرب من القلق وعدم الثبات ، يفسره هو بأن نفسه تنزع أحياناً نزعة مادية جبرية تشاؤمية ، وأحياناً تتجه وجهة تفاؤلية خيالية ؛ وهذا تفسير لا يخلو من الوجاهة . فلقد كان جيمس بعضه فيلسوف وبعضه شاعر . وبينما يحلق أحد شطريه فى الفضاء ويمرح فى سماء الخيال ، إذا بالشطر الآخر يتأمل ويمعن فى التأمل . ولا حرج على الرجل فى أن يكون شاعراً وفيلسوفاً ، ولكن ليس من السهل عليه أن يخلط الفلسفة بالشعر ، لأن لغة الفلسفة غير لغة الشعر .

فلننظر الآن إلى جيمس وكيف تسنى له أن يكون منشئاً لمذهبين فلسفيين متفاوتين كل التفاوت :

لا شك أن أهم عنصر فى التكوين العقلى لوليم جيمس هو إيمانه بحرية الإرادة . لذلك كان أكبر شيء أثاره على المذهب الفكرى ، هو الرأى القائل بالقوة الجبرية التى تسيطر وتهيمن وتسير الكون . غير أن جيمس الذى كانت تمتزج فى نفسه روح الشاعر والفيلسوف ، كان أيضاً يخضع لسلطانين : الأول سلطان المذهب التجريبى Empiricist على قسوته وصرامته ، والثانى سلطان الجو الدينى الرقيق الرحيم الذى كان يسود منزل والده ، فقد كان والده هنرى جيمس من الصوفيين أتباع مذهب سويدنبرج Swedenborg ، وقد احتفظ ابنه جيمس دائماً بشيء من العطف على التجارب الدينية . وقد أضاف إلى ذلك إيماناً بمذهب داروين بمثابة حلقة اتصال بين هذه الاتجاهات جميعاً . وبفضل هذه النزعات والاستعدادات المختلفة ، اتخذت فلسفته وجهتين : وهما المذهب

العملى Pnagmatism والمذهب التجريبى الأساسى Radical Empiricism . وقد أدرك جيمس أن كلا من المذهبين مستقل عن الآخر ولا يعتمد عليه فى شىء . ولكنه لم يستطع أن يدرك فى أى وقت من الأوقات أنهما فى الحقيقة متناقضان .

فى عام ١٨٨٤ نشر جيمس رسالته المسماة « حيرة المذهب الجبرى » The Dilemma of Determinism ، وضمنها أول حملة عنيفة على أصحاب المذهب الفكرى Idealism ، ولا شك أنها كانت تمثل الخطوة الأولى نحو تأليف نظرية الفلسفة العملية . لقد كان جيمس ينفر أشد النفور من نظرية الإيديباليين التى كانت تسوى بين الخير والشر وتجعلهما عبارة عن مظاهر كونية إلهية لا مفر منها . فقد كان معنى ذلك فى نظره أحد أمرين : إما أن الشر ضرورة قاسية لا محيص منها ؛ أو أن ما نسميه شراً هو فى الحقيقة من الخير ، إذا نظرنا إليه نظرة أبدية أزلية . وفى كلتا الحالين تصبح الحياة ضرباً من العبث ، خالية من كل تبعة على المرء . وذلك ما لم يستطع جيمس أن يقبله ، فأخذ يعمل لمحاربته .

وقد أحس جيمس بأنه لا يستطيع أن يؤمن بالحياة وبالمستقبل ، ما لم يكن فى العالم عنصر حر طليق ، بعيد عن الجبرية ، وليس من السهل تقديره أو التكهن به . وهذا العنصر الحر فى نظره هو إرادة الإنسان ، التى لا يمكن التكهن بما قد تتجه إليه ؛ لأن كثيراً من الأعمال والأطوار يتوقف على الصدفة chance . ومع أن جيمس كان يعلم أنه لا يستطيع أن يثبت وجود الصدفة ، فانه برغم ذلك كان يميل إلى الإيمان بعالم قوامه الصدفة a universe of chance ، وقد أحس السعادة لإيمانه بهذه الفكرة ، ثم أخذ يدعو الناس لأن يشاركوه رأيه هذا .

وفى عام ١٨٩٦ أخرج جيمس رسالة أخرى عنوانها « تحكم الإرادة فى العقيدة : The Will to Believe » يشرح فيها الأسباب التى دعته إلى المناداة بحرية الإرادة ؛ وفيها خطا خطوة أخرى فى بناء فلسفته ؛ ومن أهم نظرياته هنا دعواه بأن الحق كل الحق هو أن نؤمن بالرأى الذى يتفق مع رغباتنا وسعادتنا . فوجود الإله مثلا أمر وثيق الصلة بسعادة الإنسان واطمئنانه الروحى ؛ والوسائل

العلمية لا تساعده على الحكم فى هذا الأمر . لهذا يرجع فى إثباته إلى آثاره فى الفرد ــ فاذا كان الإيمان به يجلب للإنسان السعادة فهو حق ، وإلا فهو باطل ، وقد كان إيمان جيمس بالله على هذا النحو .

لا شك أن هذا التفكير كان تمهيداً مباشراً للبرجماتية ، ومن الممكن أن نعد سنة ١٨٩٨ السنة التى بدأت فيها تلك الحركة . فقد استخدم جيمس هذه الكلمة للمرة الأولى فى محاضرة ألقاها أمام الاتحاد الفلسفى بجامعة كاليفورنيا ، وزعم أنه نقلها عن صديقه شارلس ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce. وهو من أساتذة المنطق والفلسفة ، قام بالتدريس أحياناً فى جامعة هارفرد ؛ ولكنه قضى معظم حياته فى عزلة بعيداً عن الأوساط الأكاديمية ؛ وقد كان له فضل كبير فى نشر آراء جديدة فى المنطق ، ولكن جيمس لم يعن إلا بناحية أخرى من نشاطه . فقد نشر فى سنة ١٨٧٨ رسالة عنوانها : « كيف نجعل أفكارنا واضحة؟» اقترح فيها وسيلة نتبين بها معانى أفكارنا بصورة لا لبس فيها ولا غموض. وذلك بأن نتأكد من أن الفكرة لها نتائج أو آثار عملية .

وقصد بقوله « آثار عملية » النتائج التى تدرك بالحس . ورأى أن هــذا المقياس يضمن لنا ثبات المعانى ، الذى بدونه يصبح التخاطب مستحيلا ؛ كما أنه يساعد على الفصل فى كثير من المنازعات العقيمة . وضرب لذلك مثلا بالخمر التى تستخدم فى القداس ، ويرى البعض أنها رمز لدم المسيح ، ويراها آخرون أنها دم المسيح ، ولكن كلا الفريقين يرى أن خواصها الظاهرة واحدة ، ولذلك لا يرى بيرس أن بينهما اختلافاً .

تناول جيمس نظرية المعانى هذه كما شرحها بيرس ، وأخذ يستخدمها بتصرف فى أغراضه الخاصة ، وقال إنها يجب أن تطبق تطبيقاً أوسع ؛ ولذلك فانه لا يكتفى بالآثار الحسية للدلالة على معنى الأشياء . بل يضيف إلى ذلك ما تبعثه هذه الأشياء فى النفوس من عاطفة ، وبذلك أدخل العامل الشخصى وجعل له أهمية لم تكن تخطر لبيرس ببال . ومن أجل ذلك اضطر بيرس إلى أن يعلن أن فلسفته بعيدة كل البعد عن البرجماتية التى ينادى بها جيمس .

وانتقل بعد ذلك جيمس إلى القضية التى تنص على أن الحق هو ما كان له

أثر عملى أو نفع : « فالشىء نافع لأنه حق ، وهو حق لأنه نافع » . وقد شرح هذه الفكرة شرحاً مطولا فى كتابه عن البرجماتية . واحتج بأن الامتحان الصحيح لكل فكرة هو أثرها ونتائجها فى المستقبل . فاذا كانت هذه النتائج نافعة فالفكرة صحيحة . أما الحقائق التى لا تمت بصلة إلى تجارب الإنسان أو إلى رغباته وحاجاته فانها لم تكن تعنى جيمس ، ولذلك لم يكن لها وجود .

غير أن جيمس لم يجد بداً — بعد أن أعلن أن الفكرة تكون صحيحة إذا كانت لها نتائج عملية — من أن يسلم بأن الفكرة التى لها نتائج عملية لا بد أن تكون صحيحة . ومن هنا نشأت فلسفته الأخرى المسماة بالمذهب التجريبى الأساسى Radical Empiricism وقد اشتملت هذه الفلسفة على مجهودات جيمس فى معالجة المسائل الميتافيزيقية ، لا الأمور العملية ، ويصف فيها طبيعة العقل والمادة والعلاقة بين العقل والمادة ، وبين الظواهر والحقائق.

وقد أمكن لجيمس أن يبز الفلاسفة الإنجليز على كثرة ما كتبوه فى الفلسفة التجريبية . وذلك لأن آراءهم كانت تتجه دائماً إلى التحليل دون الربط ، وإلى تحطيم الكون إلى عناصر متباينة ، دون أن يظهروا الصلات التى تربط بين هذه العناصر . فكانوا كمن يعنى بالأصوات المختلفة دون أن يلاحظ ما بينها من نغم منسجم . وقد سمى جيمس فلسفته التجريبية « أساسية » لأنها ترى أن العلاقة بين العناصر أمر واقع كالعناصر نفسها سواء بسواء . وقد استطاع جيمس بمهارة عجيبة أن يطبق نظريته فى العناصر على طبيعة العقل أيضاً ، كما أوضح ذلك فى مؤلفه الكبير عن « التجريبية الأساسية Radical Empiricism »

ولننتقل الآن إلى فيلسوف آخر كان لآرائه اتصال كبير بآراء جيمس وهو :

جـ — الفريد نورث هويتهد Alfred North Whitehead

كان ألفرد نورث هويتهد رياضياً كبيراً ، وقد ألف بالاشتراك مع برتراند رسل كتاب « مبادىء الرياضة Principia Mathematica » وهو من أعظم المؤلفات الرياضية الحديثة . وهو إنجليزى النشأة ، ولكنه عين أستاذاً فى جامعة هرفارد فى عام ١٩٢٤ بعد أن تجاوز الستين ، وبقى فى أمريكا إلى أن توفى

عام ١٩٤٧ ، وقد نشرت جميع مؤلفاته الفلسفية فى أمريكا لأنه لم يشتغل بالفلسفة إلا فى المرحلة الأخيرة من حياته .

ومن الصعب تتبع آراء هويتهد الفلسفية ، لأنها ممتلئة بعبارات جديدة لمعان قديمة ، ومفردات قديمة تصف معانى جديدة ؛ ومع ذلك فان كتابه « العلم والعالم الجديد Science and the Modern World » انتشر بين مختلف الطبقات ، وذلك لأن بعض فصول هذا الكتاب قد كتب بأسلوب سهل ، وتناول موضوعات تجتذب عامة القراء .

وقد جارى هويتهد كلاً من برجسون وجيمس فى بعض آرائهما ، ولكنه أضاف غير قليل من عنده . وكان شديد الاعتراض على الفكرة التى أوحى بها نيوتن وصور بها العالم بأنه كون جامد كأنه كرة البلياردة ، يتألف من جزيئات صغيرة يحكمها قانون الجاذبية . وقال إن عالماً بهذه الصورة « يصبح شيئاً جامداً لا صوت فيه ، ولا رائحة ولا لون ، وإنما هو مجرد تحريك سريع للمادة ، بلا قصد ولا هدف ولا معنى . وفكرة العالم النيوتونى فى نظره ، هى فوق ذلك صورة لا يمكن قبولها أو تصديقها . والأسلوب العلمى كثيراً ما يشوه الطبيعة . وليس من الضرورى أن ندفع هذا الثمن لكى نصل إلى فهم دقيق للمسائل . فكل شىء فى العالم يجرى وراء غرض ، وكل حادث عبارة عن نشاط يحقق غاية ، وليس هذا نشاطا أعمى يسعى إلى خلق عالم جديد من غير نظام حسب نظرية برجسون عن « الدافع الحيوى élan vital » بل هو نشاط يخلق عالماً رتيباً يسوده النظام والانسجام ؛ ولذلك افترض هويتهد لهذا النشاط كله ينبوعاً واحداً ؛ وهذا الينبوع سماه « الإلٰه » .

د — جون ديوى John Dewey

اشتهر جون ديوى فى ميادين عديدة ، خلاف الميدان الفلسفى . ونبغ فى كثير منها ، فقد ضرب بسهم فى علم الاجتماع والسياسة ، والتاريخ والنقد الأدبى ، والأخلاق ، واشتهر بوجه خاص بنظرياته التربوية ، ومع ذلك فان هذه الجهود الجبارة على اختلاف الميادين التى اتجهت إليها ، كانت كلها متأثرة بمذهبه الفلسفى

المسمى المذهب الآلى . Instrumentalism ؛ وهو المذهب الذى ولده ديوى من المذهب العملى « البرجماتى » .

وقد اتخذت فلسفة ديوى منذ البداية موقفاً خاصاً من الإنسان والطبيعة والمجتمع . فرأت أن الإنسان وكل ما عمله الإنسان ، ما هو إلا جزء من النظام الطبيعى ، يمكن دراسته مثل جميع الأشياء الأخرى ، دون حاجة إلى الالتجاء إلى المعجزات والخوارق لتفسير أعمال الإنسان وسننه وطرائقه ، وفى هذه الناحية اتجهت الفلسفة الآلية وجهة طبيعية ؛ كذلك اتجهت وجهة بشرية أو إنسانية ، لأنها آمنت بأن الإنسان هو المقياس الذى يقاس به كل شىء . فالخير ما كان ملائماً للإنسان والشر ما كان ضاراً به . والوجهة الثالثة لفلسفة ديوى هى الوجهة التحسينية melioristic وذلك فيما يتصل بالمجتمع ، وبالحرص الشديد على الإصلاح الاجتماعى فى مختلف نواحيه ، حتى تصبح حياة الناس على الأرض فى تحسن مطرد ؛ ومن الناحية السياسية كان المذهب الآلى يجنح إلى الديمقراطية الحرة . ومع أن كثيراً من هذه الآراء تبدو لنا بديهية ، قد لا كنها الألسن وليس فيها من الجدة شىء . فلا بد لنا أن نذكر أن ديوى ولد سنة ١٨٥٩ ، وأن الفضل فى أن هذه الآراء أصبحت مما يسلم به أكثر الناس ، يرجع معظمه إلى جون ديوى وإلى أتباعه الكثيرين .

وهنالك ناحية أخرى لفلسفة ديوى حاول فيها أن يشرح نظريته فى المعرفة Knowledge ، والقيم values ، والواقع reality ، وهذه النظريات كان لها النفوذ الأكبر فى نشر فلسفته . وقد كان ديوى شديد التأثر بداروين وأسلوبه العلمى فى دراساته البيولوجية ، ولذلك طغت هذه الأساليب على تفكيره ، وكان لها مكان بارز فى تأليفه ، وكان شديد الإيمان بنظريات النشوء ، التى تفسر الظاهرات وتعالج نشأتها وتطورها ووظيفتها ؛ والأسلوب المتبع فى هذه الدراسات هو الوحيد الذى يمكن استخدامه لمعالجة كل مسألة من المسائل فى كل علم وكل موضوع . ولا شك أن ديوى كان متأثراً بما حققه العلم فى مختلف النواحى . فاقتنع بأنه يستطيع أن يضع ثقته فى الأسلوب العلمى فى معالجة الشئون البشرية ، بحيث يتحقق للإنسان عن هذا الطريق حياة أسعد وأرغد .

وقد رأى ديوى أن العقل البشرى قد تكوّن أثناء محاولات الإنسان الطويلة لكى يلائم بين نفسه وبين البيئة التى يعيش فيها . فكان الإنسان يلجأ لعقله ، كلما صادفته مشكلة يريد حلها أورغبة يريد تحقيقها . هذه هى وظيفة العقل ، ويكون الحكم عليه بقدر أدائه لهذه الوظيفة . ويذهب ديوى إلى أن هذه الوظيفة القديمة العملية للعقل البشرى هى الوظيفة الوحيدة . وليس للعقل وظيفة أخرى . أما ما يحاوله العقل من إدراكات فكرية فان هذه ليست من العلم ولا من العرفان فى شىء . لأن العرفان بطبعه شىء عملى ، لا ينطوى على مجرد التأمل والتفكير البحت ، فالمعرفة أداة أو آلة لتأدية عمل . ومن هنا سميت فلسفته بالمذهب الآلى .

ونظراً إلى أن ديوى قد اتجه بفلسفته وجهة عملية بقوة لا نكاد نجد لها نظيراً عند غيره من المفكرين ، لهذا نراه كثيراً ما يزدرى الفلاسفة ، ويحتقر الفلسفة بوجه عام ، وإن كان أكثر احتقاره موجهاً إلى الفلسفة التقليدية . وقد قال برتراند رسل فى ذلك : « إن ازدراء الفلسفة ، إذا اشتد ونما حتى أصبح مجهوداً فكرياً منظماً ، يصبح فى ذاته فلسفة ؛ وهو بلا شك الفلسفة التى تدعى فى أمريكا الفلسفة الآلية . . . »

هذه خلاصة مقتضبة لفلسفة ديوى لا يتسع المقام لأكثر منها (١) ، ولكن لا بد — مهما ضاق المقام — من الإشارة إلى أثره العميق فى التربية ، ولعله أن يكون أعمق آثاره وأبقاها على الزمن . ولعل أشهر مؤلفاته فى هذا الباب — على كثرتها وتنوعها كتابه المسمى «الديمقراطية والتربية Democracy and Education » وقد ضمنه آراءه المشهورة فى التربية ، ومضمونها أنه يجب ألا يفرض على الطفل أى شىء فرضاً ، بل يجب أن يترك لكى تنمو مواهبه وتتفتق . وإنما واجب المربى أن يتأكد من معرفة ميول الطفل ونزعاته ، ومتى تأكد منها وجب عليه أن يوفر للطفل وسائل إتباع هذه الميول . وأن يمكنه من الحياة فى البيئة التى تساعد على الوفاء بحاجات نفسه ورغباتها . ونظراً إلى أن المسائل العملية هى الأمور الوحيدة التى يجب أن يشتغل بها الإنسان ، فمن الواجب أن تكون المدرسة مكانا لتعليم الدروس ، بل يجب أن تكون صورة أخرى لحياة المنزل والمجتمع ،

(١) آراء ديو الفلسفية موضحة فى كتابه The Reconstruction of Philosophy

يتعلم فيها الطفل المسائل المتصلة بتلك الحياة . وبعبارة أخرى يجب ألا تكون المدرسة بمعزل عن المجتمع ، بل يجب أن تساعد بطريقة مباشرة فى حل مشاكله ؛ وعلى الرغم مما نالته آراء ديوى فى التربية من الانتشار والذيوع — ولعلها كانت فى الأصل مجرد صرخة احتجاج على الإسراف فى التلقين والتحفيظ ، والبرامج المثقلة بالمعلومات — فان أتباع ديوى قد أسرفوا فى الاتجاه الآخر ، وجعلوا من مذهبه فى التربية حجة لإهمال التعليم ، حتى الضرورى منه .

هـ — المذهب التحليلى

واضح مما تقدم أن كلا من جيمس وهويتهد وديوى ، قد بنوا مذهبهم فى الفلسفة على أنقاض المذهب الفكرى — أو الايديالى . وكلهم بدأ حياته الفلسفية بهجمة عنيفة على بعض نواحى تلك الفلسفة . ولكنهم لم يعترضوا على كل شىء اشتملت عليه . وتسامحوا عن بعض ما جاء فيها . أما المدرسة التى عارضت المذهب الفكرى فى كل نواحيه ، فهى المسماة بالفلسفة التحليلية الواقعية realism ، التى كمل تكوينها بظهور مؤلف مشترك وضعه ستة من دعاتها سنة ١٩١٢ وعنوانه المذهب الواقعى الجديد : The New Realism وكان على رأس هذه الفئة الأستاذ رالف برى Ralph Perry من جامعة هرفارد . وهؤلاء الواقعيون — على الرغم من أن كثيراً منهم مؤمن بالإلـه — يذهبون فى فلسفتهم وجهة طبيعية أو مادية ، فى نظرتهم إلى الإنسان وعلاقته بالعالم المادى . وأنكر المتطرفون منهم وجود الروح ، وزعموا أن كل الظاهرات النفسية جزء من الانفعالات الطبيعية .

وهؤلاء الواقعيون أشد تأثراً بالعلم من ديوى نفسه ، وكانوا بوجه خاص يعتمدون على التقدم الحديث فى علم المنطق والرياضيات ، فى طريقة تفكيرهم . وقد أصدروا نداء إلى الفلاسفة يدعونهم فيه إلى نبذ كل شىء لا ينطبق على التفكير المنطقى السليم ؛ وعلى الأخص تلك العادة الشائعة التى تلجأ إلى الشعور والإلهام فى حل بعض المشاكل الفلسفية . ورأوا من الضرورى مراعاة الدقة المتناهية فى استخدام الكلمات ، والابتعاد عن العبارات الفصيحة الخلابة ، والاعتماد على تأدية المعنى الصحيح ، حتى لا يكون هنالك أدنى شك فى تفهم المقصود . وفوق

كل شىء لا بد من اتباع الأسلوب التحليلى ، الذى يقضى بتحليل كل مركب إلى العناصر والأجزاء التى يتألف منها ، لا بقصد تشريح الكل وتقطيعه ، بل لحسن فهم طبيعة الأجزاء والصلات التى تربطها بعضها ببعض من جهة ، وبالكل الذى يتألف منها من جهة أخرى .

لقيت الحركة التحليلية دعاة وأنصاراً فى جميع معاهد العلم فى الولايات المتحدة ، حتى ليصعب أن نحصى عددهم أو نذكرهم هنا جميعاً ، ولكن واحداً منهم يستحق هنا تنويهاً خاصاً ، لا لأنه من أعلام الفلسفة الواقعية فحسب ، بل لأنه تعمد أن يكتب رسائله الفلسفية فى أسلوب نثرى بديع . هذا الفيلسوف الأديب هو جورج سانتايانا George Santayana ذلك الرجل المنحدر من أسرة أسبانية عريقة فى الحسب والنسب ، ثم قضت ظروف أسرته بعد ولادته فى أسبانيا ، أن ينشأ ويترعرع ويثقف فى مدينة بسطن . ثم يتولى تدريس الفلسفة فى جامعة هرفارد إلى أن هجر أمريكا نهائياً فى عام ١٩١٢ ؛ ومع أن فلسفته لها ميزات تجعلها فريدة فى بابها بالنسبة إلى سائر الواقعيين ، غير أن جوهرها لا يكاد يختلف عن المذهب الواقعى كثيراً(١) .

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن المذهب الواقعى ، بنزعته التحليلية كان له تأثير كبير فى الأدب ، وذلك بتوجيه النقد الأدبى وجهة جديدة ، تبحث بحثاً علمياً عن السر الكامن وراء الألفاظ والعبارات وتأثيرها فى النفس . ولا عجب والحالة هذه أن قادة النهضة الجديدة فى النقد الأدبى أمثال رتشاردس I.A. Richards كانوا أيضاً من المشتغلين بالفلسفة الواقعية(٢) .

هذه الخلاصة المقتضبة عن الاتجاهات الفلسفية فى أمريكا فى القرن العشرين ترينا مبلغ نشاط الحركة الفلسفية ، وكيف شغلت عدداً كبيراً من الأدباء

---

(١) أهم مؤلفات سانتايانا هى كتاب (عالم الواقع Realms of Reality) فى أربعة أجزاء

(٢) بدأ رتشاردس حياته فى كمبردج . ثم انتقل إلى أمريكا حيث أخرج معظم مؤلفاته فى النقد الأدبى وأشهرها (1923) The Meaning of Meaning ثم Practical (1924) وأخيراً كتابه الثالث The Principles of Liberary Criticism Criticism (1929)

والمفكرين ؛ فأصبحت المؤلفات الفلسفية ، على الرغم من غموض البحث أحياناً ، تحتل مكاناً واضحاً فى الإنتاج الفكرى . ولها مكانها الواضح فى النثر الفنى ، الذى يمتاز فى كثير من الأحيان بجمال الأسلوب . وللفلسفة أيضاً أثر آخر فى الأدب وهو أن مذاهبها المختلفة قد أثرت فى الكتّاب ، حتى مؤلفى القصص والشعر ، وإن لم يكتبوا شيئاً من النثر غير القصصى .

— ٢ —

الصحفى الأديب
بقلم جيمس جراى

من الجائز أن تكون عادات الصحفى وأساليبه فى الكتابة مختلفة بعض الاختلاف عن عادات الأديب المحترف . ومن الجائز أيضاً أن الصحفى إذا جلس ليؤلف كتاباً ، أخضع قلمه لمؤثرات يرى أنها تمثل التقاليد المأثورة ، فى الكتابة الأدبية فيسمح لنفسه بالتزام أساليب أرفع ، وتعبيرات أدق ، مما يلتزمه فى مقالاته التى يكتبها لجريدته أو مجلته ولا شك أنه يدرك أيضاً أنه فى مؤلفاته الأدبية يتناول موضوعات أعمق ، وأبقى على الزمن من الموضوعات العابرة ، التى كثيراً ما يضطر لكتابتها لجريدته أو مجلته . غير أن الصحفى المتدرب قد اكتسب بحكم مهنته عادات فى التأليف ، تجعل لكتابته حين يتناول موضوعاً من التاريخ أو سيرة بعض الرجال أو النقد أو تجارب الحياة ، مزايا قلما تتاح لغيره مثل وضوح الأسلوب ، وتجنب الإطالة ، والإقناع . فمن هذه الناحية كان للصحفى أثر فى النثر الفنى لا سبيل إلى نكرانه .

وهكذا أثرت حرفة الصحافة فى أسلوب الكاتب الصحفى حين يتناول قلم الأديب لكى يؤلف كتاباً ؛ ولكنها لم تؤثر فى أسلوبه فقط بل أثرت أيضاً فى اختياره للموضوع الذى يؤلف فيه ؛ فان أهم موضوع يعنى به الصحفى فى حرفته هو أمريكا : سواء من ناحية ماضيها الذى يساعد على فهم حاضرها ، أو علاقاتها الخارجية ، التى توجه سياستها وكثيراً من نشاطها .

— أ —

فى بداية القرن العشرين سرت فى نفوس طائفة من الكتاب رغبة شديدة

فى تسجيل ما يعرفونه عن بلادهم . وكان معظم هؤلاء الكتاب من الصحفيين الأدباء ، لم تسبق لهم كتابة فى القصص أو الشعر أو المسرحيات أو الفلسفة ، وتعوزهم التجربة الفنية التى تمرس بها هؤلاء . فكان اعتمادهم على قوة الملاحظة ، وروح الفكاهة ، وصدق الفراسة ، لكى يجعلوا من مجهودهم فى تأليف سفر مشترك عن الحياة فى أمريكا كتاباً حياً ، يكشف للأمة ما خفى من شئونها ، وقد اشترك مع هؤلاء الكتاب أحياناً بعض الفلاسفة أو الأدباء المحترفين . ولكن الذين حملوا معظم العبء كانوا رجالا ونساء حرفتهم الأساسية أن يكتبوا للجرائد والمجلات .

وفى هذا الموضوع المشترك الضخم اتجه كل كاتب وجهته الخاصة ، فتعددت وجوه النشاط فى غضون نصف هذا القرن . فمن الكتاب من أخذ ينبش تحت أديم الثرى ، ليطلع على ما خفى من العيوب التى لا تراها العيون ؛ ومنهم من جعل يبحث فى زوايا القطر عن المستغلين للموارد البشرية أو المادية . ومنهم من اتجه إلى إسقاط المتزعمين بالباطل عن مراتب الزعامة ، ومنهم من أخذ يفضح مخازى عصر الجاز وما اشتمل عليه من السخافات . ومنهم متكهنون أخذوا يحذرون الأمة مما يتهدد المجتمع الأمريكى من عوامل الانهيار . وفى أثناء الأزمة الاقتصادية عام ١٩٣٠ وما بعدها اتجه الكتاب إلى بحث العلل ورسم العلاج — وبعد أن شاهدوا حربين عالميتين ، انفسح أمامهم مجال للكتابة فى الصلات بين أمريكا والعالم الخارجى ، بعد أن خرجت عن عزلتها ، وهيهات أن تعود إليها .

— ب —

وكان الكتّاب المهاجرون أول من تحدث عن أمريكا والقيم التى تسودها . وكانت نزعتهم تتجه إلى الإصلاح والتفاؤل . ومن أول الكتاب فى هذا الباب يعقوب ريس الذى نشر فى ١٩٠١ كتابه Jacob Rüs: The Making of an American وصف فيه بأسلوب مرح كيف يهرب المرء من الفقر والجوع ومن ضرب الشرطة ، إلى أن يصبح صديقاً للرئيس ثيودور روزفلت . وقد كشف فى كتابه هذا عن أحوال تتطلب الإصلاح الاجتماعى ، وعن جهود المؤلف فى تحقيق هذا الإصلاح

وقد كان لنقده المر لشوارع نيويورك وما بها من الأقذار أثر قوى فى تحريك عدد من الكتاب نحو الإصلاح ، ومن أشهر هؤلاء لنكولن ستفنس الذى نشر فى سنة ١٩٠٤ كتابه « عار المدن The Shame of Cities »، وحمل حملة قوية على قادة المجتمع .وعلى الناخبين الذين سمحوا بأن يتولى شئونهم أمثال هؤلاء القادة.

وفى أوائل القرن ظهر كاتبان عنيا أيضاً بالمشاكل الاجتماعية الكبيرة ، وهما إيدا تاربل Ida Tarbell ورأى ستانرد بيكر Ray Stannard Baker. فقد عالجت مس تاربل مسألة الاحتكار الاقتصادى لموارد الثروة وخصت بحملتها شركة ستاندرد فى كتاب عنوانه The History of the Standard Oil Company وقد نشرته فى عام ١٩٠٤ وأثر كتابها فى نفس جون د.روكيفلر ، فكان يقول عنها : « هذه المرأة المضلَّلة» . وقد سبق لها قبل ذلك أن ألفت كتاباً فى حياة إبراهام لنكولن (فى سنة ١٩٠٠) صححت فيه كثيراً من الآراء الخاطئة عن سيرة الزعيم فى أول حياته . وفى عام ١٩٢٥ ألفت كتاباً فى سيرة ألبرت جيرى صاحب مصانع الصلب . ولم تجد أى تناقض فى هذا مع نقدها لشركة البترول.وأخرجت بعد ذلك كتاباً عن تاريخ حياتها فى عام ١٩٣٩ .

أما راى ستانرد بيكر فبدأ جهوده الإصلاحية بكتاب عنوانه « على أثر خط اللون Following the Color Line » وخط اللون هو الذى يفصل بين السود والبيض . وقد كان كتابه دعاية قوية للمساواة بين الأجناس وقد صحب ولسن إلى مؤتمر فرسايل بعد الحرب العالمية الأولى ، ونشر بعد ذلك كتاباً عن سيرته Woodrow Wilson: Life and Letters وكان له فوق ذلك سلسلة من المؤلفات يصف بها الحياة الأمريكية فى أسلوب شيق جذاب .

إذا انتقلنا من نيويورك إلى تشيكاجو ألفينا نهضة مماثلة بين رجال الصحافة فى مستهل القرن العشرين ، وكان على رأس هذه النهضة جماعة من الكتاب ينشرون مقالاتهم فى صحف تشيكاغو ، وينتهزون الفرصة لإخراج كتاب يركزون فيه آراءهم وتجاربهم . ومن أشهر أعضاء هذا الزعيل الأول الكاتب فنلى بيتر دن Finley Peter Dunne وقد خطر له أن يسجل آراءه على لسان شخصية مبتكرة ، فاخترع شخصاً سماه مستر دولى Dooley ووصفه بأنه مهاجر

إيرلندى يتكلم بلهجة بلاده ، وجعل من أحاديثه وسيلة لبحث الشئون الدولية أحياناً ، ولتوجيـــه النقد اللاذع للمجتمع أحياناً ، فى أمريكا وفى غيرها من الأقطار ، وقد ضمن هذه الآراء كتابيه المعروفين : « مستر دولى فى الحرب والسلم » (١٨٩٨) و « مشاهدات مستر دولى » (١٩٠٢) .

فى عام ١٨٩٠ ظهرت فى أمريكا مجلة جديدة عنوانها : The Smart Set (الطبقة الراقية) وقد تولى رياسة التحرير فيها كاتب وكاتبة من الطراز الأول وهما هـ. ل. منكن ، وجين ناثان H.L. Mencken and Jean Nathan وكان من أهم ما تخصصت فيه هذه المجلة التعريف بكبار الكتاب العالميين مثل دانتى بو الإيطالى وغيره . وكذلك تخصصت فى التعريف بكتاب أعلام أمريكيين مثل الشاعر والت وتمان Walt Whitman بعد أن كاد الجمهور ينسى ذكرهم . وفتحت المجلة صدرها للكتاب الناشئين المجيدين . وقد جعل الكاتبان من سياستهما الهجوم المستمر على الثقافة الأمريكية ، والتنديد بها ، والغض من كل شخص نال الشهرة من غير جدارة واستحقاق . وفتح هذا الباب مجالا لكل كاتب أراد أن يشترك فى هذه الحملة الشعواء على أمريكا والأمريكيين ، ولمن أراد أن يرد أو يدافع عن بعض التقاليد أو الرجال الذين أغير عليهم من غير رحمة ولا شفقة . وقد اشتهر فى ذلك الوقت لفظ جديد فى اللغة الأمريكية وهو Debunk ولعل أفضل ترجمة له «تحطيم الأصنام» . وقد وصف رئيس التحرير منكن بأنه رئيس هذه العصابة ، حتى إنه عندما أخرج كتابه فى سيرة الجنرال جرانت ١٩٢٨ رأى الكثير أنه أراد به أن ينزل القائد الذى تزعم الجانب الشمالى فى الحرب الأهلية ؛ عن عرشه ، مع أن الكتاب لا يعدو أن يكون سيرة جيدة التأليف ، وأدنى إلى التاريخ الصحيح مما سبقها من سير لهذا القائد ؛ وتمتاز بتوخى الحقيقة وتجنب التأثر بالعاطفة . وقد حذا حذوه فى ذلك الكاتب روبرت هيوز Rupert Hughes فى كتابه عن سيرة جورج واشنطن . فأخرج للعالم أول سيرة تاريخية ، لا تظلم البطل ، ولكنها بعيدة عن الإسراف فى التمجيد .

ولم يكن بد من أن تثير هذه الحملة على كل شىء أمريكى ؛ نوعاً من رد الفعل ، وفى عام ١٩١٦ ظهر لمارك توين كتاب عنوانه الغريب المجهول :

The Mysterious Stranger أظهر فيه هذا الكاتب الشهير ما هو حسن فى الخلق الأمريكى . ولا شك أن دخول أمريكا الحرب العالمية ، والنصيب الكبير الذى اضطلعت به فيها ، كان له أثره أيضاً فى تخفيف تلك الحملات ، وانصراف الكتاب إلى موضوعات أخرى ، وبرغم ذلك ظل موضوع نقد أمريكا والأمريكيين تارة فى هدوء واعتدال ، وطوراً فى عنف وإسراف ، من الموضوعات التى تجرد لها الأقلام فى كل وقت . وكان هذا الهجوم المطرد يقابله من آن لآن دفاع معتدل ، وقلما كان الدفاع ممتازاً بالعنف والتهور ، وعلى الأخص فى أيدى الكتاب المبرزين . وكثيراً ما كان النقد فى مختلف صوره وأشكاله يجىء فى أثناء سرد المؤلف لسيرة حياته . ولذلك امتلأت الخمسون عاماً الأخيرة بهذا الضرب من التأليف ، سواء وصف الكتاب بأنه سيرة المؤلف Autobugraphy أو كان له عنوان آخر .

ويبدو أن تناول الكتاب أمريكا والأمريكيين بالنقد أو المدح ، قد دفع طائفة من الكتاب إلى معالجة التأليف فى مناظر أمريكا الطبيعية . فألف بروز Burroughs كتابه « تحت شجرة التفاح » سنة ١٩١٦ وألف تلميذه دالس شارب Dallas Lore Sharp كتاب : «تلال هنجهام» The Hills of Hingham وكتب الروائى هولس W.D. Howells كتابه : «سنوات شبابى » Years of my youth ودخل الميدان أيضاً كاتب روائى كبير وهو ثيودور دريزر وألف كتاباً عنوانه إجازة هوزير Hoosier Holiday وصف فيها رحلة إلى ولاية إنديانا ، حيث قضى شباباً غير سعيد ، وحيث يكافح الناس الطبيعة القاسية .

واشتهر قبل الحرب العالمية من كتاب المقالات البارعين ساموبل كروذرس Samuel Crothers فنشر فى ١٩١٢ مجموعة مقالات بعنوان « حديث الناس : Humanly Speaking » ثم شفعها بمجموعة أخرى فى عام ١٩١٦ ؛ وقد نحى فيها نحو شارلز لامب كاتب المقالات الإنجليزى المشهور . ونشرت الكاتبة أجنس ربلير : Agnes Repplier ذات النزعة الاستقراطية مجموعة مقالات عنوانها : « تيارات متعارضة » ١٩١٦ تنقد فيها المجتمع ، ومظاهر الانحلال التى أخذت — فى نظرها — تتجلى فيه . ومن أشهر كتاب المقالات فى هذه الفترة لوجان برسال

سميث Logan Pearsall Smith الذى عاش شطراً كبيراً من حياته فى انجلترة مثل الروائى هنرى جيمس ونشر أول مجموعة من مقالاته فى سنة١٩٠٢ وعنوانها : « أشياء تافهة : Trivia » ثم شفعها بمجموعة أخرى فى عام ١٩٢١ ؛ وكل مجموعة تشتمل على مقالات قصيرة كل منها فى نحو مائة كلمة فى أسلوب مركز بليغ . ثم نشر بعد ذلك فى عام ١٩٣٨ سيرة حياته ووصف هجرته إلى الجزر البريطانية .

تعتبر نهاية الحرب العالمية فى عام ١٩١٨ بمثابة الخاتمة لمرحلة من مراحل الأدب الأمريكى الحديث . وقد امتازت هذه النهاية بقلة الإنتاج الأدبى ، لأن الأقلام كانت منصرفة لشئون الحرب من جهة ، ولأن الطور الجديد للمجتمع لم يتمثل بعد فى روح الكتاب وإنتاجهم . ومع ذلك فقد ظهرت فى هذه الفترة بضعة مؤلفات ذات خطر ، وبعضها من أرقى ما أخرجه الأدب الحديث فى النثر غير القصصى . وحسبنا هنا أن نشير أولا إلى كتابين من تأليف هملين جارلند Hamlin Garland ، الكاتب الصحفى البارع الذى نشأ فى وسكنسن ، فى الوقت الذى كانت فيه هذه الولاية ميداناً للإنشاء والتعمير ، والجهود الجبارة التى تبذل ، والصعوبات الجمة التى لا بد من التغلب عليها . وعلى الرغم من أن جارلند قاسى شظف العيش فى صباه فى هذه الولاية ، فانه أخذ يحن إليها وهو فى نيويورك فوصف الاقليم فى كتابين : ابن الإقليم الأوسط (١٩١٧) وبنت الإقليم الأوسط (١٩٢١) . وفى هذا الوقت أيضاً (١٩١٨) ظهر كتاب هنرى أدمز المعروف : تربية هنرى أدمز The Education of Henry Adams وهو يعد من المؤلفات الأدبية الرفيعة فى نصف القرن الماضى . والكتاب نوع من السيرة الشخصية للمؤلف ، وإن كان ينزع فى كثير من فصوله إلى نقد أساليب التربية السائدة فى أمريكا . وقد أعلن فيه المؤلف أن قد آن الأوان لأن يعاد النظر فى جميع العناصر التى تدخل فى تكوين وتنشئة كل فرد . وعلى أثر نشر هذا الكتاب ظهر كتاب آخر مؤلفه فان وك بروكس Van Wych Brooks عنوانه « الأدب والقيادة : Letters and Leadership » ، أعلن فيه التحدى الآتى للأمريكيين : « إننا نريد أن نقوم بنصيبنا فى الحياة العالمية الراقية ، ولكننا عاجزون عن ذلك لأننا ليست لنا حياة رفيعة خاصة بنا » .

ويعد كتاب أدمز وبروكس من الأمور النادرة فى وقت اتجه فيه الكتاب إلى الحرب ونتائجها وأثرها فى أمريكا ، فكتب ثيودور روزفلت كتابيه : المغامرة الكبرى : ودراسات فى الوطنية الأمريكية فى الوقت الحاضر . ونشر إليهو روت Elihu Root كتابه المعروف : « الولايات المتحدة والحرب » . وألف مارك سلڤان Mark Sullivan كتاباً عن خطر القوة البحرية عنوانه « استيقظى أمريكا Wake up America » ولا يكاد المرء يعثر على كتاب فى النثر غير القصصى سوى مؤلف واحد يدعى « وادى الديمقراطية : The Valley of Democracy» للكاتب الروائى مرويت نيكلسن .

ولم تدم تلك الفترة المجدبة فى نهاية الحرب العالمية طويلا ؛ فان الجيل الجديد الذى ازداد نضجاً بعد تلك التجربة القاسية ، كان منفتح الذهن لكل فكر جديد ، متعطشاً للمطالعة الجدية . فلم يلبث أن ظهرت طائفة من الكتاب حوالى عام ١٩٢٠ تتناول موضوعات مختلفة من الحياة الأمريكية . فنشر ثيودور دريزر كتابه : « هى رَبْ أدَبْ دَبْ: Hey Rub-a-Dub-Dub » يصف فيه الشعب الأمريكى وصفاً ينزع إلى التشاؤم ؛ ونشر « وليم دبوا : William Du Bois» أبرع كاتب زنجى فى أمريكا ، وأكثرهم اعتدالا كتابه : « داركواتر : Darkwater » يدافع فيه بلباقة عن حقوق لم تستطع الديمقراطية أن تحفظها لأربابها . وظهرت فى الوقت نفسه طلائع المؤلفين الذين استطاعوا أن يدركوا أن أمريكا قد خرجت عن عزلتها القديمة ، ولا بد لها أن تحتل مكانها بين دول العالم . وبدا هذا واضحاً فى كتاب جورج كريل George Creel عن الرئيس ولسن : وعنوانه « الحرب والعالم وولسن » .

وفى عام ١٩٢٠ ظهر كاتب جديد وهو كلارنس داى ؛ وبدأ حياته الأدبية بكتاب لاذع الأسلوب عنوانه : « هذا العالم القردى This Simian World » يقول فيه إنه قد يكون هنالك أمل فى مستقبل العالم لو كان سكانه خلقاً أقل شبهاً بالقرود من هذه الكائنات البشرية . وقد نشرت كاتبة أمريكية : كاثرين جيرولد فى الوقت نفسه كتاباً أكثر هدوءاً وإن كان يعالج الموضوع نفسه عنوانه « الشكول

والأخلاق Modes and Morals» أبانت فيه أن الأمريكيين يعوزهم الوقار والاحتشام .

وقد تناول القراء هذه الكتب بشغف ، لشدة رغبتهم فى أن يلموا بشئون بلادهم ، وأن يطلعوا على أية صورة يرسمها كتابها لأية ناحية من نواحى الحياة فيها. ولم تلبث أن ظهرت مؤلفات عديدة فى العشرة الأعوام التالية للحرب العالمية الأولى استجابة لهذه الرغبة ؛ فنشرت الكاتبة كونستانس لندسى سكنر Skinner كتابين عن الحياة فى بعض الولايات الغربية أولهما : « مغامرات فى أوريجون » ، والثانى « رواد الجنوب الغربى : Pioneers of the South-West »

وتخصص الكاتب الضليع جيمس ترساو آدمز James Truslow Adams فى إخراج مؤلفات يعالج فيها نواحى هامة من تاريخ أمريكا فى أسلوب سهل ، فأخرج على التوالى « تأسيس انجلترة الجديدة » و « انجلترة الجديدة الثائرة » (١٦٩١ — ١٧٧٦) . و « انجلترة الجديدة تحت النظام الجمهورى » (١٧٧٦— ١٨٥٠) ، أبرز فيها التطورات الهامة فى تاريخ الولايات المتحدة . ثم أتبع ذلك بسلسلة أخرى عن آراء الزعماء الأوائل فى تاريخ أمريكا : تحت عنوان : « مبادىء هاملتن » و « مبادىء جفرسن » و « أسرة آدمز » . وأخرج كذلك كتباً أخرى قيمة من أعظمها كتاب «قصة أمريكا : The Epic of America» فى سنة ١٩٣١ و « تقدم الديمقراطية : The March of Democracy» (١٩٣٢ — ١٩٣٣) .

وكان آدمز فى كتبه هذه حريصاً على أن يظهر النواحى الطيبة ونواحى المجد فى تاريخ أمريكا ، والمبادىء السليمة التى يرتكز عليها المجتمع الأمريكى . ولكى تتعادل الكفتان نرى كتاباً آخرين مثل ثيودور دريزلر يحمل بأسلوبه المر اللاذع على حضارة الصناعة والمال التى تنغمس فيها أمريكا ، وضمن حملاته الجديدة كتباً تصف تجاربه أو تاريخ حياته . فأخرج فى هذا الموضوع كتابه المسمى « كتاب عن نفسى A Book about Myself » فى سنة ١٩٢٢ ؛ وكتاب « لون مدينة عظيمة The Color of a Greet City » — فى العام التالى

واتجه كتاب السير إلى التأليف فى حياة أعلام أمريكا : فنشر وليم ألن هويت فى عام ١٩٢٤ كتاباً عن « وودرو ولسن : عصره وعبئه Woodrow wilson

His Times and His Tasks »، وأخرج فى العام التالى سيرة الرئيس كالفن كولدج ونشر كلود بورز Bowers كتابين عن كل من الرئيسين هاملتن وجيفرسن فى سنة ١٩٢٥ . أما ألن نفنز Alan Nevins فاتجه فى السير وجهة أخرى بأن ألف كتاباً فى حياة « فرمنت ، مغامر الأقاليم الغربية الأكبر Frémont, The West's Greetest Adventurer»[1] ولكن أعظم مجهود فى كتابة السير على هذا النحو هو بلاشك كتاب كارل سان برج Sandburg عن حياة إبراهام لنكلن. والذى ظهر منه المجلدان الأولان فى عام ١٩٢٦ ، فنال تقديراً كبيراً من القارىء غير المختص ، ومن المؤرخ المحترف لدقة البحوث التى قام بها المؤلف ، ولاعتداله فى الحكم .

فى عام ١٩٢٣ أخذ الكاتب الصحفى مارك سليفان يخرج مشروعاً جريئاً لكى يضع أمام القراء صورة تفصيلية واضحة للحضارة الأمريكية فى مختلف أشكالها . فنشر كتابه « زماننا Our Times » وأتمه فى ستة مجلدات شرح فيها كل ناحية من نواحى الحياة الأمريكية فى الربع الأول من القرن العشرين . عالج فيها كل موضوع من المسائل السياسية إلى ملابس النساء . وقد صادف الكتاب هوى فى نفوس أبناء الجيل وكان له من أسلوبه وروحه ما جعله مقبولا لدى القراء ، متمشياً مع روح العصر وذوقه .

وهكذا مضى الكتاب فى الأعوام العشرة التالية لسنة ١٩٢٠ يخرجون مختلف الكتب فى نقد أمريكا أو مدحها فى أسلوب ينزع إلى السخرية تارة وإلى الاشفاق تارة أخرى . ومع ذلك فقلما ظهر لمؤلف فى هذه الفترة كتاب ينذر بالأزمة الاقتصادية التى جاءت فى نهايتها . وفى نفس عام ١٩٢٩ ، الذى تداعى فيه صرح وال ستريت وانهدت أركانه . أخرج جيمس ترسلو آدمز كتاباً يتغنى فيه بفضائل حضارة أمريكا المالية والتجارية عنوانه : «حضارتنا المادية Our Business Civilisation » . كما امتازت تلك السنة بمحصول وافر للأدباء الصحفيين ، فأخرج هربرت أسبورى تاريخ حياة « كارى ناشن » ، ونشر كلود بورز كتاباً عن حالة الارتباك التى سادت أمريكا بعد الثورة عنوانه : « العصر الأليم :

(١) فريمونت رحالة وكشاف ومغامر أمريكى من أصل فرنسى (توفى عام ١٨٩٠) وكان له فضل ارتياد مساحات هائلة من الولايات غرب المسيبى إلى المحيط الهادى .

The Tragic Era» وظهر لأول مرة الكاتب ماركويس جيمس Marquis James بكتاب عن حياة سام هوستن عنوانه The Raven، وأخرج والتر فرانسس هويت كتاباً عن اضطهاد السود فى أمريكا ، دعا فيه إلى التمسك بروح التسامح ، ويندد فيه بالقسوة العنصرية ؛ عنوانه «الحبل والعصا : Rope & Faggot». ونشر موريس هندوس كتاباً عنوانه : «الإنسانية تنتزع من جذورها Humanity Uprooted» عالج فيه موضوع الفلاحين فى روسيا السوفياتية ، حين انتزعوا من مزارعهم وحشدوا فى المزارع الحكومية . فكان كتابه من المؤلفات التى تناولت موضوعاً هاماً من الشئون الدولية ، سبق به غيره من المؤلفين فى هذا الميدان . ولعل أهم كتاب ظهر فى تلك السنة كتاب والدو فرانك : « إعادة الكشف عن أمريكا The Re-Discovery of America» ومع أن الموضوع قديم فقد عالجه بأسلوب طريف وطريقة جديدة . فنظر إلى أمريكا بعين الفاحص الذكى ، الذى يطيل التأمل ، ويكاد يتنبأ بالمستقبل ، هذا إلى حسن عرض وجمال أسلوب ألفناه فى مؤلفاته الأخرى ولكنه أكثر ظهوراً فى هذا الكتاب .

— د —

امتازت السنوات العشر التالية (١٩٣٠ وما بعدها) بالأزمة المالية التى أظلت هذه الفترة فى مبتدئها ، وبالسحب التى غشيت السلام العالمى فى نهايتها ؛ وماتقدم الحرب العالمية من انتشار النظم الدكتاتورية فى ألمانيا وإسبانيا وغيرهما . ولم يكن بد من أن يكون لهذا كله أو لبعضه أثر فى المؤلفات التى ظهرت . ولكن هذه الموضوعات لم تطغ على أقلام الكتاب ، الذين استمروا فى معالجة الموضوعات القديمة الخاصة ببلادهم وحياتهم ، ومن الكتب الممتازة التى ظهرت فى عام ١٩٣١ ثلاثة كتب للأدباء السيدة مارى روبرتس رينهارت ، وفردريك لويس ألن ، وكونستانس رورك Constance Rourke — الأول عبارة عن سيرة حياة الكاتبة My Life كانت فيه أكثر إبداعاً منها فى مؤلفاتها الروائية ، سردت فيه بأمانة تاريخ حياتها ووصفت البيئة الأمريكية بمزاياها وعيوبها ، والكتاب الثانى لفردريك ألن وعنوانه « بالأمس فقط Only Yesterday » سرد فيه قصة الأعوام السابقة وأن أمريكا تستطيع أن تستفيد من تجاربها وأخطائها الماضية ، والكتاب

الثالث لكونستانس رورك وعنوانه « الفكاهة الأمريكية American Humour » يشرح بعض نواحى الخلق الأمريكى . ونلاحظ أن النقد الهدام لكل شىء أمريكى أو الزعم بأن أمريكا عالة على أوربا ، لم يعد هو النغمة السائدة فى هذه الفترة ؛ بل أخذ الكتاب ينصفون أمريكا وأحياناً يغلون فى ذلك . كما فعل برنار دى ڤوتو B. de Voto فى كتابه : « أمريكا : بلاد مارك توين Mark Twain's America » ومن الكتاب الذين نزعوا هذه النزعة هربرت أجار H. Agar ، نشر فى سنة ١٩٣٠ كتابه « سألتزم مكانى I'll take my Stand » يعالج فيه ضروباً من المسائل الاقتصادية والسياسية والتاريخية ، ثم كتابه الثانى (سنة ١٩٣٤) « اختيار الشعب The People's Choice » يحذر فيه من أن بعض سفهاء الخطباء قد يصلون فى ظل الحكم الديمقراطى إلى مكان ليسوا جديرين به .

وفى عام ١٩٣٤ — ولم يكد يمضى على الحكم النازى فى ألمانيا أكثر من عام — نشر الصحفى الأديب هاملتون ف. آرمسترنج كتاباً عنوانه « دولة هتلر Hitler's Reich » وخلص من بحثه هذا إلى أن أمريكا لا مفر لها من أن تعيش فى العالم الفسيح ، وأن العلم بالشئون الدولية مما لا يستغنى عنه بلد ديمقراطى .

فى منتصف السنوات العشر التى نحن بصددها بدت ظاهرة جديدة فى النثر الأمريكى غير القصصى ، وهى التى صارت تدعى فيما بعد باسم « الإقليمية Regionalism » ، ومن المعروف أن الولايات المتحدة وعددها ثمان وأربعون بينها اختلاف فى المواقع والمناظر والتقاليد والتاريخ وغير ذلك . وعلى الرغم من شدة إخلاص أبناء كل ولاية لولايتهم — بل وتعصبهم لها — فان بالأمريكى شغفاً للاطلاع على أحوال الولايات الأخرى ، ومن الطبيعى أن يكون الكاتب عن كل ولاية أو إقليم أو بلدة هو عادة من أبناء الجهة التى يكتب عنها ؛ مما يزيده حماسة فى مجهوده الأدبى . ولكن هذا ليس معناه أن القراء لأمثال هذه الكتب هم أبناء الولاية أو البلدة . لأن الشغف بمعرفة حال البلاد كلها وخصائصها وميزاتها كان عاماً بين جميع السكان .

ومن الكتب التى ظهرت فى هذه الفترة تعالج هذا الموضوع كتاب كارل

كارمر C. Carmer وعنوانه «تساقط النجوم على ألباما : Stars Fell on Alabama» (١٩٣٤) . ويمتاز بأسلوبه الفكاهى الهادىء وحسن إدراك المؤلف لمزايا سكان الجنوب . وقد لقى هذا الكتاب نجاحاً هائلا ، اضطر المؤلف إلى أن يعيد الكرة بتأليف كتاب عن الإقليم الشمالى من ولاية نيويورك عنوانه « أنصت إلى طبل منفرد : Listen for a Lonesome Drum » .

وفى عام ١٩٣٤ أيضاً نشر لويس أدامك L. Adamic ، كتابه « عودة الواطن The Native's Return » يصف فيه عودته بعد زيارة لبلاده الأصلية يوجوسلافيا ، التى غادرها إلى أمريكا وهو فتى فى الخامسة عشرة من عمره ويقابل فى هذا الكتاب بين الحالة الفكرية فى العالم الجديد والقديم ، ويقرر فيه أن الطريقة المثلى هى الجمع بين مميزات كل من العالمين .

وفى هذه الآونة ظهر أيضاً كتابان من سير الأبطال نالا شهرة عظيمة : الأول من تأليف دجلاس س. فريمان عن حياة روبرت . إ . لى قائد الجيوش الجنوبية فى الحرب الأهلية ، والثانى عن حياة الرئيس جاكسون للكاتب ماركويس جيمس ، وكلاهما يحتل مكاناً ممتازاً بين كتب السير من الناحيتين الأدبية والتاريخية.

ومن قبيل المؤلفات الخاصة بالحياة الأمريكية كتاب كلارنس داى Clarence Day ، وإن لم يكن وصفاً لإقليم أو بلدة ، ولكنه وصف لشخصية فرد يمثل المحافظة على أخلاق السلف وعاداتهم . وعنوان الكتاب « الحياة مع الوالد Life with Father » . وقد ظهر فى عام ١٩٣٥ ، وهو يعد من عيون الأدب فى الفترة السابقة للحرب الأخيرة .

وقد تحمست الكاتبة الأديبة كونستانس لندساى سكنر C.L. Skinner لموضوع التأليف الإقليمى وسلكت به طريقاً جديدة ، فرأت أن من المفيد تتبع مراحل الحضارة الأمريكية من نهر إلى نهر . وهكذا افتتحت سلسلة « أنهار أمريكا » فى سنة ١٩٣٧ . وعاونها فى ذلك عدد من الكتاب ؛ تناولوا الأنهار كبيرها مثل المسسبى الأعلى تأليف والتر هافجورت Havighurot ، ونهر أركنساس للكاتب كلايد بريون دينس ، أو صغيرها مثل نهر هدس . للكاتب كارل كارمر Carl Carmer : The Hudson

وبديهى أن يلتفت الكتاب الصحفيون إلى السحب القاتمة التى تغشى السياسة الدولية ، خصوصاً بعد الحرب الإسبانية : وأن يوجهوا الأنظار للمستقبل المتجهم . فكتب ماكس لرنر Max Lerner بقوة فى هذا الموضوع كتابه المعروف «تأخرنا أكثر مما تظن It is later than you think» ، وكتب لويس فيشر L.Fischer بعد أن تكشفت له حقيقة التجربة السوفياتية كتاباً عنوانه الرجال والسياسة : Ment Politics يدعو فيه الأمريكيين إلى التفكير بهدوء فيما يجب عليهم عمله فى الأزمة المقبلة . ونشر جون جنتر Gunther كتاباً عن الدكتاتوريات الأوربية عنوانه « فى داخل أوربا Inside Europe » ثم نشر بعد ذلك كتاباً آخر مشابهاً عن أمريكا اللاتينية Inside Latin American

— ٥ —

كان للأزمة الاقتصادية التى اشتدت فى أمريكا بعد عام ١٩٣٠ أثر فى التأليف والمؤلفين ، خارج عن المألوف . وهو تنظيم مشروعات فى التأليف بوساطة الحكومة الأمريكية الفدرالية . فقد رأت أن يقوم الكتاب بتأليف سلاسل من نوع كتب « الأدلة » ، التى تصف بعض الجهات والأركان الأمريكية . وتولى الإشراف على تنفيذ هذا البرنامج الضخم رجال ذوو براعة نادرة مثل هرلان هاتشر Harlan Hatcher فى ولاية أوهيو وليل ساكسون L. Sexon فى لويزيانا . وقد أداروا هذا المشروع بهمة وبمهارة ، حتى أصبحت هـذه المجلدات العديدة كتباً ذات قيمة ثابتة وأضافت إلى المجموعات الإقليمية السابقة ثروة ضخمة . وأمكن بذلك إكمال بعض السلاسل التى بدئت من قبل مثل سلسلة الأنهار ، وغيرها .

ولا يتسع المجال لذكر تفاصيل هذه المجموعة وحسبنا أن نشير إلى أمثلة منها مثل : « بلد الأحراج : The Buck eye Country » تأليف هرلان هاتشر ، وبحيرة سوبريور للكاتبة جريس لى نيوت Grace Lee Nute وكاليفورنيا الجنوبية تأليف كارى ماكويليامس Cary McWilliams

وثارت الحرب العالمية الثانية ، فانتشر الكتاب الأمريكيون فى ميادينها ،

ووراء الميادين وفى العواصم الأوربية يسجلون ما يرون وينقلون للشعب الأمريكى صورة ما يجرى فى الجانب الآخر من المحيط . وازداد إنتاجهم وتأثيرهم فى الرأى العام الأمريكى ، لا بفضل رسائلهم ومقالاتهم . بل وبالكتب التى ألفوها أيضاً وعالجوا فيها موضوع الحرب والمتحاربين ، وكانت النغمة السائدة لدى الكتاب الأمريكيين هى ضرورة مساعدة المعسكر الديمقراطى ولا شك أن الرأى العام الأمريكى كانت قيادته بأيدى أولئك الكتاب . ففى كتابه المسمى « مفترق الطرق Two Way Passage » دعا لويس أدامك إلى أن السياسة الخارجية الوحيدة لأمريكا هى مناصرة الحرية . وأعلن هربرت أجار فى الكتاب المشترك الذى أشرف على إخراجه وعنوانه : « مدينة الديمقراطية » أن الحرية لا بد لها أن تشن حرباً مقدسة جديدة لتعيش . ونشر ماكس لرنر كتابين يدعو فيهما إلى التعاون الدولى أولهما : « الأفكار أسلحة Ideas are Weapons » . والثانى : « أفكار للعصر الجليدى Ideas for the Ice Age». ودخل الصحفى ذو القلم الحاد : كنكر بوكر H.I. Knickerbocker الميدان بكتاب قوى عنوانه « هل الغد لهتلر Is To-morrow Hitler's ? كما دخله كاتب أديب لبق هادىء شديد التأثير وهو ليلند ستو Leland Stowe مجرداً قلمه لنصرة الديمقراطية فى كتابه « الطريق الوحيد إلى الحرية No'other Road to Freedom

ومن المقرر أن الصحفى الأديب قد امتاز فى زمن الحرب — بل وبعدها أيضاً إلى حد كبير — بإحساسه بالتبعة ، وترجيحه للمصلحة العامة ، وقد كان هذا كله سبباً فى رقى النثر غير القصصى ، بحيث أصبح منافساً قوياً للمؤلفات الروائية الخيالية .

٣ — التفكير الاجتماعى بأمريكا فى القرن العشرين (*)

لوالتر متزجر

إن التأليف فى الموضوعات الاجتماعية بأمريكا على كثرته وتنوعه — اتجه بوجه خاص إلى معالجة المشكلة القديمة وهى : « التنوع ، أم التجانس؟» فأنصار التنوع يوصون بالعناية بالفرد وبأن نفسح له مجال الاختيار ، وأن نحافظ

(*) سيجد القارىء فى هذا الفصل إشارة إلى مؤلفين وإلى كتب جاء ذكرها من قبل، لأن الفلسفة كثيرا ماتمس الشئون الاجتماعية . وكذلك السياسة والموضوعات الأخرى التى يعالجها رجال الصحافة .

على حياته وحريته وما يمتلك . كما يوصى أنصار التجانس بالاهتمام بالمجتمع ، وحماية مصالح الأمة ، وأن تقل الاختلافات بين الأفراد لمصلحة الجميع . وقد نشأت أمريكا فى صباها على تمجيد مصلحة الفرد ، وحينما تقدمت صناعاتها ونضجت حياتها الاقتصادية ظلت متمسكة بمبدأ التنوع ، ولكن النزعات المختلفة التى ظهرت فى القرن العشرين حملت الكاتب الاجتماعى فى أمريكا على أن يعيد التفكير فى هذه المشكلة وأن يتناولها بالبحث .

ا ــ النزعة الفردية فى الاقتصاد

لا شك أن الأمريكيين فى منتصف القرن التاسع عشر كانوا مؤمنين بأن كل فرد يجب أن يترك لشأنه فى تدبير حياته ومشروعاته الاقتصادية كما يشاء دون تدخل من حكومة أو سلطان . ولكن هذا الإيمان قد لقى اعتراضاً فى نهاية القرن ، حينما تبلورت التطورات الاقتصادية وظهرت طبقة من الأغنياء من جهة ، وجيش من العاطلين من جهة أخرى ، فكان لا بد من الدفاع عن المذهب القديم حتى يثبت أنه لا يزال صالحاً للعهد الجديد .

وقد تصدى للدفاع عن المذهب القديم فى نهاية القرن أستاذ فى جامعة ييل وهو وليم جراهام سمنر W.G. Sumner ، ونشر فى نصرة ذلك المذهب كتاباً عنوانه : « ما تدين به الطبقات بعضها لبعض » (سنة ١٨٨٣) . ولم يزل هذا القسيس ، الذى تحول أستاذاً ، يتابع حملاته إلى القرن العشرين . وكان آخر مؤلفاته كتابه « مسالك الشعب Folkways » حاول فيه أن يربط بين القوانين الاقتصادية وبين العلوم الطبيعية . وأن لكل منها سنناً وقواعد لا تقبل التحول أو التبدل . فجاء مذهبه الاجتماعى أقرب إلى المذهب الجبرى عند الفلاسفة .

ولا شك أن هذا الاتجاه كان متفقاً مع النزعات التى كانت سائدة فى بداية القرن العشرين . ولكن تيارات جديدة أخذت تظهر وتثبت وجودها ، ولم يكن بد من أن تلقى صدى فى التفكير الاجتماعى .

ب ــ نظرية التقدم — Progressivism

«التقدم» اصطلاح لايخلو من الغموض ؛ لأنه يشير إلى الناحية السياسية تارة والناحية الاجتماعية تارة أخرى ، وكانت المظاهر السياسية متناقضة ، ولكن الحركة

الاجتماعية التى أطلق عليها هذا الاصطلاح كانت تمتاز بشىء من الوضوح والثبات . إذ كان أهم عناصرها : التربية التقدمية ، وعلم النفس التطبيقى ، والتفسير الاقتصادى للتاريخ . والمذهب العملى والآلى فى الفلسفة ؛ وكان أهم أنصارها جون ديوى ، وشارل بيرد Charles A. Beard ، وأولفر وندل هولمس الابن Oliver Wendell Holmes Jr. ، وتورشتين فبلن Thorstein Viblen .

وهؤلاء الكتاب لم ينكروا أن التنوع بين الناس أمر لا مفر منه ، بل ومرغوب فيه ، وأن كل فرد يجب أن تتاح له الفرصة لكى ينتج خير ما فى نفسه وما تؤهله له مواهبه ؛ ولكنهم أظهروا أيضاً أن كل عمل يأتيه فرد له ناحية اجتماعية وله أثره فى المجتمع . والاهتمام بالفرد لا يناقض الاهتمام بالمجتمع كله .

وقد قام جون ديوى ببناء الهيكل الفلسفى للمذهب التقدمى . وشرح ذلك فى كتابه «البناء الجديد فى الفلسفة : Reconstruction in Philosophy» (سنة ١٩٢٠) وفى كتابه الفردية قديماً وحديثاً (١٩٣٠) أنحى باللائمة على المجتمع الأمريكى الذى يحاول أن يجعل الأفراد متجانسين فى المشرب والذوق ، وفى كتابه « الحرية والثقافة Freedom and Culture» (سنة ١٩٣٩) حمل على الدكتاتورية الروسية لأنها تفرض التجانس بالقوة . وهكذا يبدو أن فلسفة ديوى الاجتماعية لا ترمى إلى الدفاع عن التجانس ، بل إلى إيجاد نوع من التناسق بين الفرد والمجتمع .

فى عام ١٩١٣ نشر بيرد كتابه عن التفسير الاقتصادى للدستور An Economic Interpretation of the Constitution فكان هذا بدء عهد جديد للدراسة التاريخية عامة ولدراسة الدستور الأمريكى بوجه خاص ، وقد ذكر فيه أن الدستور لم يكن من صنع الشعب كما يزعم رجال القانون ، أو من صنع الولايات كما يزعم الآخرون ، بل هو من صنع جماعة مؤتلفة مصالحها لا ترتبط بولاية من الولايات دون غيرها ، والدستور فى نظره وثيقة ذات أهمية خاصة من الوجهة الاقتصادية ، مبنى على فكرة أن حقوق الملكية الفردية سابقة لنشأة الحكومة ، ولذلك لا يجوز التعرض لها ، وقد ناقش بيرد هذا الرأى ودحضه فى كتاب آخر : « الأساس الاقتصادى للسياسة The Economic Basis of Politics » نشره سنة ١٩٢٢ .

ولكنه لم ينزع فى فصوله هذه نزعة ماركسية كما اتهمه البعض، ولكنه كان يحوم بلا شك حول الاشتراكية المعتدلة . وكان أهم عنصر فى تأليفه رغبته فى إظهار ما للعوامل الاقتصادية من الأثر العميق فى الأحداث والدساتير التاريخية ؛ ولعل شدة تحمسه فى مؤلفاته الأولى أوهمت الناس أنه يرى أن العوامل الاقتصادية هى الكل فى الكل . وهذا ما أنكره المؤلف بعد ذلك فى كتابه « الجمهورية » (سنة ١٩٤٣) وفى الطبعات المتأخرة من كتابه « الأساس الاقتصادى للسياسة».

وذهب ثورستين فبلن Veblen إلى أبعد مما ذهب إليه كل من ديوى وبيرد وأخذ يحمل بقوة على طبقات الأغنياء أو « أصحاب الفراغ » وعلى نظرية التنافس فى ميدان العمل . فنشر فى عام ١٨٩٩ كتابه « نظرية الطبقة الفارغة : The Theory of the Leisure Class» ثم كتابه « نظرية التنافس فى ميدان العمل : The Theory of Business Enterprise»(سنة ١٩٠٤) ؛ ونقد فى هذين الكتابين النظام الرأسمالى المتطرف نقداً لاذعاً ، وقد اتهم فبلن بأنه ينزع نزعة هدامة فى كتابته ، ولا شك أن تطرفه وبعده عن الاعتدال مما ساعد على نشر هذه الفكرة . غير أن هذا لم ينقص من قيمة مؤلفاته أو من أثرها فى تقدم التفكير الاجتماعى فى أوائل هذا القرن .

ولا بد لنا ونحن نعالج موضوع التفكير الاجتماعى أن نشير إلى التفكير التربوى ، والمجهود الذى بذله فى هذا السبيل كل من ديوى : وهنرى آدمز — وقد سبقت الإشارة إلى مؤلفاتهما فى هذا الموضوع — فلا حاجة بنا إلى العودة للكلام عنها . وحسبنا أن نذكر أن كلا الكاتبين قد بدأ نهضة جديدة فى ميدان التربية كان لها أثرها فى خارج الولايات المتحدة أيضاً .

وقد أحس عدد كبير من الكتاب التقدميين ، عندما أدركتهم الحرب العالمية الأولى ، أن من واجبهم أن يحملوا حملة عنيفة على الروح الحربية الجرمانية وأن يساهموا فى الدعاية الوطنية ، بهمة وحماسة ، وأن يدعوا إلى متابعة الحرب بمنتهى الصرامة ، بعد أن اشتركت فيها أمريكا ، وكان هذا بوجه خاص هو الموقف الذى وقفه كل من ديوى وشارلس بيرد . وقد تعرض هؤلاء الكتاب بسبب

انقيادهم إلى حمى الحماسة الحربية لضروب من اللوم والنقد من كتاب كانوا من قبل معجبين بهم مثل راندلف بورن R. Bourne فى كتابه « صفحات فى غير أوانها Untimely Papers»

تعرض المجتمع الأمريكى أثناء الحرب العالمية الأولى لألوان من التنظيم الاجماعى ، فرض فيه على المجتمع أن يسلك مسلكاً واحداً ، وأن يجرى فى كثير من شئونه على وتيرة واحدة . فأصبحت حرية الفرد محدودة ، والتنوع لا يلقى تشجيعاً ، والتجانس هو القاعدة فى معظم الأمور ؛ ومع أن هذه الإجراءات كانت لضرورات حربية فقد خلفت وراءها آثاراً ، تبدو فى أعمال طائفة كوكلكس كلان وتعصبها الممقوت ، وإذا كانت الرقابة على النشر قد انتهت رسمياً ، فانها خلفت العقلية التى حرمت داروين ، وحظرت شرب الخمر . والظاهر أن رجال الصناعة كانوا أيضاً يحبذون التجانس فى الذوق والمشرب ، لأن إنتاج البضائع المتشابهة من أهم أركان الصناعة الحديثة . وقد وجدت هذه الاتجاهات من يدافع عنها فى شخص الكاتب الاقتصادى توماس نكسون كارفر ، الأستاذ بجامعة هارفرد فى كتابه « الثورة الصناعية الحاضرة فى الولايات المتحدة The Present Economic Revolution in the United States» وقد زعم فيه : « أن أمريكا قد تحررت من طغيان السلطات كما تحررت من الفاقة ، بفضل تأثير الأعمال الرأسمالية الكبيرة».

ولم يلبث أن تصدى لهذا الرأى وأنصاره عدد من الكتاب ذهبوا هم أيضاً إلى أقصى الطرف الآخر ، وطعنوا فى جميع القيم الديمقراطية ، وهم يتوهمون أن هذا التجانس الذى ينفرون منه والذى يقيد حرية الفرد ، هو من نتاج الديمقراطية ، وهى بالطبع بريئة منه ، وقد حمل لواء هذه الثورة رجال مثل هارولد ستيرنس H. Stearns الذى أشرف على إخراج كتاب مشترك ساهم فيه نحو ثلاثين كاتباً عنوانه « الحضارة فى الولايات المتحدة » . وقد أوصى فيه كل من الكتاب بتغيير شامل فى المجتمع الأمريكى ، وإن لم يتفقوا جميعاً على نوع هذا التغيير .

أما هـ . ل . منكن H.L.Menckew فكان أكثر عنفاً فى أسلوبه وتطرفاً

فى آرائه . وقد حمل على الديمقراطية حملات شديدة العنف فى كتابه « مذكرات فى الديمقراطية » . ومن الغريب أن ما يوصى به لإصلاح الحال هو تنشئة سلالات جديدة تنشئة بيولوجية طبقاً للمذهب الأوجينى ، مع اعترافه بأن هذه طريقة بطيئة ، كما هى الحالة فى استخراج سلالات من البقر أو خيل السباق .

ولعل والتر ليمان W. Lippmann كان أقل تطرفاً ، فان كل ما أوصى به هو أنه : نظراً للجهل الشائع عند العامة ، فانه يجب ألا يعرض على الهيئات الديمقراطية سوى المسائل اليسيرة ، ويجب تأليف هيئة أخرى من العلماء الاجتماعيين لتوجيه سياسة الدولة . راجع كتابه « الجمهورية الوهمية The Phantom Republic » سنة ١٩٢٥ .

جـ — المنظم الاجتماعى ، وأصحاب المذاهب المتطرفة

لم تلبث الأزمة الاقتصادية أن حاقت بالولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٩ وما بعدها ، ولم تلبث كذلك أن ظهرت فى أوربا نظم دكتاتورية قضت إلى درجة بعيدة على حرية الفرد . وفى هذه الظروف القاسية لم يكن بد من أن تقف حرب الثائرين من الكتاب على الديمقراطية . وقد راع الكتاب ظهور النازية بوجه خاص ، وبطشها بخصومها . وازدياد بأسها ، فظهرت فى هذه الظروف نزعات أخرى للمؤلفين بعضها يعطف على النظام الشيوعى ، مثل لويس كورى الذى زعم أن التخلص من طغيان الرأسمالية لا يكون إلا بدكتاتورية الشعب (فى كتابه اضمحلال الرأسمالية الأمريكية ١٩٣٥)[1] أما والتر ليمان فان حالة العالم المضطربة قد ردته إلى تقديره للنظم الديمقراطية ، كما يظهر ذلك فى كتابه « المجتمع الصالح » الذى نشره فى سنة ١٩٣٧ .

وفى أثناء هذه الاتجاهات المتطرفة بين أقصى الشمال وأقصى اليمين ، ظهر نوع جديد من التفكير الاجتماعى ، ينحو ناحية عملية ، ويتجه نحو تنظيم المشروعات الاجتماعية الضخمة التى تفيد الملايين من الناس ، وترفع مستواهم المادى والأدبى . وفى طليعة هؤلاء الكتاب : « دافيد ليلينتال David Lilienthal »

(1) Lewis Corey : Decline of American Capitalism.

الذى أشرف على مشروع نهر تنشى The Teunessee Valley Authority.
ووصف هذه الفلسفة الاجتماعية العملية فى كتابه «مشروع تنشى : الديمقراطية تتقدم Tva : Democracy on the March.» ولم يكن كتابه هذا مجرد شرح لمشروع اقتصادى خطير ، بل هو أيضاً شرح لفكرة اجتماعية سليمة ونقد لمذاهب التطرف ، وتأكيد بأن من الممكن أن يكون هنالك التئام بين حرية الفرد وتقوية المجتمع ، وبين التنوع والملاءمة .